

التعامل مع المحن والأزمات في عصرنا الحاضر من خلال القرآن الكريم غزوة الأحزاب أنموذجاً

د. علي الأمين عوض الله محمد (*)

مقدمة:

الحمد لله حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين إمام الهدى وسيد الأولين والآخرين، معلم البشرية وأسوتها الحسنة سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وبعد :

فإن هذا العصر الذي نعيش فيه خير أنموذج للآزمات المتعددة، لأنه مليء بالمحن والأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، خاصة في بلادنا الإسلامية والعربية، وكان لهذه الآزمات عظيم الأثر في انتشار الفتن وتمكن العنصرية وتفشي الجهل والمرض والفقر والبطالة والنزوح واللجوء فالآزمات والمحن ظاهرة ترافق سائر الأمم والشعوب في جميع مراحل النشوء والارتقاء والاتحاد. وفي الأحداث التاريخية الكبرى نجد أنه بين كل مرحلة ومرحلة جديدة ثمة أزمة تحرك الأذهان وتشعل الصراع وتحفز الإبداع وتطرق فضاءات بكر تمهد السبيل إلى مرحلة جديدة، غالباً ما تستبطن بوادر أزمة أخرى وتغييراً مقبلاً آخر، وكان لنمو واتساع المجتمعات ونضوب الموارد المتنوعة وشدة المنافسة السياسية والاقتصادية الكلمة الفصل في طول حياة الآزمات.

وفي عصرنا الحاضر تعرضت الأمة الإسلامية لأكبر محنة وأزمة في حياتها فقد تكالبت عليها الأمم والكفر بكل ملله وألوانه، فكان من الضروري التصدي لهذه الآزمات، وحسن التعامل معها، ووضع الحلول لها وتجاوزها بالإيمان واليقين

(*) الأستاذ المشارك بقسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى - مكة المكرمة.

والصبر والتوكل، وبالعبارة بقصص السابقين من المؤمنين الأوائل ولنا في قصص السابقين الأسوة الحسنة.

وهذا البحث لا يتناول أسباب الأزمة وإدارتها وأنواعها وعلاجها، فقد تم بحث هذا الموضوع وكتب فيه الكثير، ولكنه يلقي الضوء على المحن والأزمات التي تعرّض لها المسلمون في غزوة الأحزاب بهدف استئصالهم وإبادتهم، حيث زلزلوا زلزلاً شديداً وأحاطت بهم الأحزاب من كل جانب وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ثم كان النصر وانفراج الكربة بعد تدخل العناية الإلهية حيث أرسل الله تعالى عليهم الريح فأرغمتهم على الرحيل، ونلقي الضوء سريعاً على الأزمة والبلاء في غزوة بدر الكبرى، وكيف كانت المواجهة والتعامل مع هذا البلاء بصبر وإيمان وبقين حتى لو أدى إلى الموت. ليكونوا بذلك قدوةً وأنموذجاً لنا في التصدي للأزمات التي تواجهنا في عصرنا الحاضر بعيداً عن اليأس والقنوط، واستشرفاً للأمل والنصر والتمكين لهذه الأمة ولهذا الدين.

وقبل أن نتطرق إلى محنة المسلمين في الأحزاب ، نطوف سريعاً على ما تعرض له بعض الأنبياء من محن وأزمات وكيف تعاملوا معها فهي سنة باقية إلى يوم القيامة، وأول ممتحن ومتعرض للأزمات أبو البشر آدم عليه السلام فبعد أن أهبطه الله إلى الأرض وأفقدته لذيق العيش وزادت محنته بقتل أحد ابنيه الآخر، فلما طال حزنه وبكاه واستغفاره ودعاؤه، - رحمه الله تعالى - وتاب عليه وهواه وكشف ما به ونجاه.

وتعرض نوح عليه السلام للمحن والأزمات بتكذيب قومه وعصيانهم ومجادلتهم له المدة الطويلة، وكذلك عصيان ابنه له وتأخره عن الركوب معه في السفينة، وأعقبه الله الخلاص من تلك الأهوال والتمكين في الأرض.

وتعرض إبراهيم الخليل عليه السلام للابتلاء بذبح ابنه إسماعيل فنجى الله إسماعيل عليه السلام وفداه بذبح عظيم واجتاز إبراهيم عليه السلام المحنة بصبر وإيمان وكذلك نجاه الله من أن يحرق بالنار بعد أن ألقاه قومه فيها.

وما تعرض له أيوب عليه السلام من ابتلاء في بدنه وماله وأهله، وصبره على ذلك بمدح القرآن له ثم تعويض الله له وكشف ما به من ضرر ومعافاته.

أما يوسف عليه السلام فقد عانى صنوفا من المحن والابتلاءات: محنة كيد الإخوة. ومحنة الجب والخوف والترويع فيه. ومحنة الرق وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى يد على غير إرادة منه، ولا حماية ولا رعاية من أبويه ولا من أهله. ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة، وقبلها ابتلاء الإغراء من امرأة العزيز ومحنة السجن بعد رغد العيش وطراوته في قصر العزيز. ثم محنة الرخاء والسلطان المطلق في يديه، وهو يتحكم في أقوات الناس وفي رقابهم، وفي يديه لقمة الخبز التي تقوتهم! ومحنة المشاعر البشرية وهو يلقي بعد ذلك إخوته الذين ألقوه في الجب وكانوا السبب الظاهر لهذه المحن والابتلاءات كلها.. وما كان منه من عفوٍ وصفحٍ، بعد أن خرج من كل هذه المحن والأزمات بالصبر واليقين والتوكل على الله تعالى.

وما تعرض له نبينا عليه الصلاة والسلام من ألوان المحن والأزمات على المستوى الشخصي ومواقف المشركين معه بإيذائه حتى بلغ مؤامرات اغتياله ونجاته، أو على مستوى الدعوة والجماعة المؤمنة حيث تعرضوا للابتلاء والحرب والكيد في مكة والانتفاف على المسلمين في غزوة أحد للخلاص منهم ومحققهم وما كان من إحاطة بهم في الخندق، وخرج نبينا ومن معه من كل ذلك بمعوية الله تعالى ونصره لهم وكان النصر والتمكين.

إذن المحن والابتلاءات والأزمات هي سنة الله في الكون ماضية إلى يوم القيامة على مستوى الفرد والجماعة، لتتمايز الصفوف، ولِيُحَصَّ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِهِ فيظهر الإيمان من الكفر والنفاق، ويكون النصر في نهاية الأمر للمؤمنين ولهذا

الدين، قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٨٦) آل عمران الآية (186).
ويتكون هذا البحث من مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

المبحث الأول

معاني مصطلحات البحث

معنى التعامل: عمل: عَمِلَ عَمَلًا فهو عاملٌ. واعتَمَلَ: عمل لنفسه العمالة: أجر ما عمل لك.

والمعاملة: مصدر عاملته مُعاملةً والعملةُ: الذين يعملون بأيديهم ضرورياً من العمل حَفَرًا وطيناً⁽¹⁾

عمل: قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ: ﴿وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهِا وَالْمُؤَلَّفَةَ...﴾ (التوبة، وهم السُّعَاة الَّذِينَ يَأْخُذُونَ الصَّدَقَاتِ مِنْ أَرْبَابِهَا، واحدهم عاملٌ وساعٍ. واستعمل فلان إذا ولي عملاً من أعمال السُّلْطَانِ. وَيُقَالُ: أَعْمَلَ فُلَانٌ ذِهْنَهُ فِي كَذَا وَكَذَا إِذَا دَبَّرَهُ بِفَهْمِهِ. وَقَالَ اللَّيْثُ: يُقَالُ: عَامَلَتِ الرَّجُلَ أَعَامَلَهُ مَعَامَلَةً⁽²⁾

وَأَحْدَهُمْ عَامِلٌ وَسَاعٍ. وَالْعَامِلُ: هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى أُمُورَ الرَّجُلِ فِي مَالِهِ وَمَلِكِهِ وَعَمَلِهِ، وَالْعَمَلُ: الْمِهْنَةُ وَالْفِعْلُ، وَالْجَمْعُ أَعْمَالٌ، عَمِلَ عَمَلًا، وَأَعْمَلَهُ غَيْرُهُ وَاسْتَعْمَلَهُ، وَاعْتَمَلَ الرَّجُلُ: عَمِلَ بِنَفْسِهِ (تعاملاً) عامل كل منهما الآخر (تعلم) واجتهد العامل. (3) "

(1) انظر العين تأليف الخليل بن أحمد الفراهيدي - تحقيق عبدالحميد هندراوي - دار الكتب العلمية 1424 هـ - 2003م، (2/153-154)

(2) انظر تهذيب اللغة تأليف محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي أبو منصور المتوفى سنة 370هـ، تحقيق محمد عوض مرعب - دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1 (2/255) وانظر معجم مقاييس اللغة تأليف أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي أبو الحسين، المتوفى سنة 350هـ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر 1399 هـ - 1979م، (4/145)

(3) انظر لسان العرب لابن منظور: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي (المتوفى: 711هـ): دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ. (11/474). وانظر القاموس المحيط للفيروزآبادي (2/628) وانظر القاموس الفقهي د/ سعدي أبو حبيب (1/262)

إذن نستخلص مما ذكره أهل اللغة أن التعامل : من المعاملة وإعمال الذهن وتدبير الفهم والاجتهاد والتصرف في أي أمر من الأمور لتحقيق المصالح الفردية والجماعية.

معنى المحن: محن: امتحنته امتحانا. وأصابته محن من الدهر أي بلاء وشدائد. وفي التنزيل:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِتَقْوَىٰ ...﴾ الحجرات، كَانَ الْمَعْنَى فِيهِ:

ابْتَلَاهُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ قَوْلِهِمْ: بلوت الرجل إذا اختبرته. (1)

محنته وامتحنته بمنزلة خبرته واختبرته وبلوته وابتليته وأصل المحن الضرب بالسوط. (2) «المُتَحَن» هُوَ الْمُصَفَّى الْمُهَذَّب. مَحَنَتُ الْفِضَّةَ، إِذَا صَفَّيْتَهَا، وَخَلَّصْتَهَا بِالنَّارِ. (3)

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ : صَفَّاهَا وَهَذَّبَهَا،. وَمَحَنَتْهُ وَامْتَحَنَتْهُ: بِمَنْزِلَةِ خَبَرْتُهُ وَاخْتَبَرْتُهُ وَبَلَوْتُهُ وَابْتَلَيْتُهُ. وَأَصْلُ الْمَحَنِ: الضَّرْبُ بِالسَّوْطِ. وَالِاسْمُ الْمِحْنَةُ. وَالْمَحْنُ: الْعَطِيَّةُ.. وَالْمِحْنَةُ: وَاحِدَةُ الْمِحَنِ الَّتِي يُمْتَحَنُ بِهَا الْإِنْسَانُ مِنْ بَلِيَّةٍ. وخلاصة هذه الأقوال يعرف أن معنى المحن : تدور حول البلاء والاختبار والشدة والتي تؤدي بصاحبها إلى الصفاء والإخلاص والتمحيص والنقاء.

(1) انظر جمهرة اللغة للأزدي: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: 321هـ) تحقيق: رمزي منير بعلبكي: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الأولى 1987م (572/1). وانظر المعجم الوسيط، المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة (2/ 856)

(2) انظر لسان العرب لابن منظور (401/13)

(3) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: 606هـ) تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي: المكتبة العلمية - بيروت، 1399 هـ - 1979م. (304/4)

معنى الأزمة : الأزمة: الشدة والقحط. يقال: أصابتهم سنة أزمتهم أزما، أي استأصلتهم. وأزم علينا الدهر يأزم أزماً، أي اشتدّ وقلّ خيرُه. (1)

الأزمة: السنة المُجْدِبَةُ. يُقَالُ إِنَّ الشَّدَّةَ إِذَا تَتَابَعَتْ انْفَرَجَتْ وَإِذَا تَوَالَتْ تَوَلَّتْ. (2)
الأزمة: وَهِيَ الشَّدَّةُ، وَأَصَابَتْنَا أَرْبَةٌ وَأَرْبَةٌ أَي شَدَّةٌ، وَيُقَالُ لِلْسَّنَةِ الشَّدِيدَةِ: أَرْبَةٌ وَأَرْبَةٌ وَلَرْبَةٌ، بِمَعْنَى وَاحِدٍ (3)

الأزمة: الشدة والقحط، والأزمة: الضيق والشدة يُقال أزمة مَالِيَّةٌ وأزمة سياسية وأزمة مرضية (4)

وخلاصة معنى الأزمة من الأقوال : الضيق والشدة وقد تكون سياسية أو مالية أو مرضية، ولا بد لها من التولي والانفراج.

ويكون بذلك المعنى المراد من عنوان البحث هو : الاجتهاد وإعمال الذهن والتصرف عند مواجهة الشدة والبلاء فردياً كان أو جماعياً، سياسياً كان أو اقتصادياً أو غيره، بهدف تحقيق المصالح الفردية والجماعية والدينية.

(1) انظر الصحاح تاج اللغة لإسماعيل الفارابي (1861/5) وانظر المحكم والمحيط الأعظم

أبو الحسن المرسي (82/9)

(2) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (47/1) وانظر مختار الصحاح للرازي (17/1)

(3) انظر لسان العرب لابن منظور (213/1)

(4) انظر المعجم الوسيط ابراهيم مصطفى وآخرون (16/1)

المبحث الثاني

المحن والأزمات في غزوة الأحزاب

لقد قص القرآن الكريم أحداث هذه الغزوة وبين فيها مقدار المحنة والأزمة التي واجهت المسلمين في ذلك الوقت من عهد الإسلام الأول حين حُوصِر المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الخندق لما أحاطت بهم جنود الأحزاب، قريش وخطباء وبنو النضير، حتى أن الله امتن على عباده بأن نجاهم من جموع المشركين الذين أرادوا استئصالهم وإبادتهم فنصرهم عليهم، قال تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١﴾ الأحزاب.

ويبين الطبري في تفسيره لهذه الآية حالة الأزمة والمحنة التي كان يعيشها المسلمون، فقد روى عن محمد بن كعب القرظي أن أبا حذيفة قال: والله لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق وصلى هويلاً من الليل ثم التفت إلينا فقال: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم؟ يشرط له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرجع أدخله الله الجنة"، فما قام أحد.. ثم صلى هويلاً من الليل ثم التفت فقال مثل مقالته فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني" (1)

ويحكي حذيفة رضي الله عنه الحالة العامة حين دخل في القوم، والريح تفعل بهم ما تفعل حيث لا تفر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً، ويحكي مقالة أبي سفيان لقومه يأمرهم بالمغادرة قائلاً: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، ولقد هلك

(1) انظر جامع البيان للطبري (215/20)، وانظر مغازي الواقدي (489/2)

الكرام والخف، واختلفت بنو قريظة، ولقينا من هذه الرياح ما ترون، والله ما يطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل." (1)

وتمضي آيات الأحزاب تصور تلك الأزمة تصويراً دقيقاً، قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ (10) الأحزاب

حيث أحاطت بهم الأحزاب: غطفان وقريش ويهود بنو قريظة في عشرة آلاف من كل مكان، حتى ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق على المدينة. "وقد أشار عليه سلمان الفارسي ورضي به النبي صلى الله عليه وسلم تحصيناً للمدينة، وللمسلمين وأموالهم، وهذا لا ينافي التوكل والثقة بالله تعالى، ولكنه نوع من الأخذ بالأسباب. ولم يكن معروفاً عند العرب، لذلك تفاجأت به قريش، وأفتل خطتهم في القضاء على المسلمين واستئصالهم." (2)

وفي البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ...﴾ قالت: كان ذلك يوم الخندق (3)، وتزداد الأزمة ويعظم البلاء وتشتد

(1) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى 1420 هـ - 2000 م. (216/20)

(2) انظر جامع البيان للطبري (217/20) وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية 138 هـ - 1964 م. (129/14) وانظر سيرة ابن حبان (255/1)

(3) صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422 هـ. (109/5) رقم (4103) صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261 هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي: دار إحياء التراث العربي - بيروت. (2316/4) رقم (3020)

المحنة حيث حرض حيي بن أخطب كعب بن أسد القرظي، وهو صاحب عقد بني قريظة وعهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رضخ له ونقض العهد.⁽¹⁾

وتأكد النبي عليه السلام من ذلك الغدر فازدادت الأزمة واشتد الخوف وعظم البلاء. ويصف القرآن حال المسلمين ومحتنهم، ويعبر عن حالة الأزمة التي تواجهها الجماعة المسلمة الأولى في ذلك الوقت فقال: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ يعني عدلت الأبصار عن مقرها وشخصت طامحة ومالت عن موضعها ومكانها من الرعب والخوف فبلغت الحناجر.⁽²⁾

وقيل على معنى المبالغة وهو مثل مضروب في شدة الخوف، والأظهر كما يقول القرظي: أنه أراد اضطراب القلب وضرباته، أي كأنه لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة.⁽³⁾


(1) انظر جامع البيان للطبري (218/20) وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولى 1419 هـ. (347/6)

(2) انظر جامع البيان للطبري (218/20) معالم التنزيل في تفسير القرآن للبخاري: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البخاري الشافعي (المتوفى: 510هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ. (620/3)

(3) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرظي (145/14) وانظر الكشاف للزمخشري (526/3)

وقال تعالى ﴿وَتَطْمَئِنُّنَ بِاللَّهِ الطُّمَئِنًا﴾ : فعظم البلاء واشتد الخوف حتى ظن بعض المسلمين كل ظن، حتى قال معتب بن قشير⁽¹⁾: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط، وتعذروا بأن بيوتهم عورة من العدو يستأذنون الرجوع.⁽²⁾

وظن المنافقون أن محمداً عليه السلام وأصحابه يستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيظهره على الدين كله.⁽³⁾

يقول تعالى ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾  الأحزاب، إذن هو اختبار لإيمان المؤمنين وتمحيص للقوم حتى يعرف المؤمن من المنافق، وهو ابتلاء بالخوف والقتال والجوع والحصار والنزال.⁽⁴⁾، وتصوير الآية دقيق في التعبير عن الحالة التي كان عليها المسلمون من الزلزلة والزعزعة والاضطراب.

ويقول صاحب الظلال مصوراً حالة الخوف والأزمة: إنها صورة الهول الذي روع المدينة، والكرب الذي شملها، وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة من كل جانب من أعلاها ومن أسفلها، فلم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب عن قلب، وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب وظنها

⁽¹⁾ معتب بن قشير بن مليل بن زيد بن ضبيعة الأنصاري الأوسي ممن شهد بدرًا، وقد ورد الحديث عن أهل بدر "وما يدريك لعل الله تعالى اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى - فتبين قوله: "قد غفرت لكم" لا يمنع أن يعملوا بعد ذلك ذنباً ويتوبوا منها ... الخ.

(2) انظر جامع البيان للطبري (218/20) بتصرف، وانظر تفسير القرآن لابن كثير (347/6)

(3) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (347/6) وانظر تفسير ابن أبي حاتم (3116/9)

(4) انظر جامع البيان للطبري (222/20) وانظر تفسير ابن أبي حاتم (3118/9)، والقرطبي

(147/14)

بالله، وسلوكها في الشدة، وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج، ومن ثم كان الابتلاء كاملاً والامتحان دقيقاً، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسماً. ⁽¹⁾

ولو تمعن الإنسان قليلاً لوجد رابطاً بين الماضي والحاضر، وتشابهاً في الأحداث المليئة بالمحن والأزمات في عهد الإسلام الأول، وما هو ماثل اليوم ونعيشه في حاضرنا وواقعنا المعاصر، حيث التخطيط والتنفيذ لحرب الإسلام والمسلمين وتدبير المكائد والمؤامرات لاستئصال المسلمين والقضاء عليهم حتى لا تقوم لهم قائمة، ويلمح سيد قطب هذا التشابه فيقول :

" وننظر اليوم فنرى الموقف بكل سماته وكل انفعالاته وكل خلجاته وكل حركاته ماثلاً أمامنا، كأننا نراه من خلال هذا النص القصير. ننظر فنرى الموقف من خارجه: ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ ⁽¹⁰⁾ الأحزاب، ثم ننظر فنرى أثر الموقف في النفوس: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ وهو تعبير مصور لحالة الخوف والكربة والضيق، يرسمه بملامح الوجوه وحركات القلوب، ثم تزيد سمات الموقف بروزاً، وتزيد خصائص الهول فيه وضوحاً: ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ ⁽¹¹⁾ الأحزاب.. والهول الذي يزلزل المؤمنين لا بد أن يكون هولاً مروعاً رهيباً. ⁽²⁾ ويصور حال المسلمين ما رواه المقرئ قال: أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قاتلوا يومهم إلى هوي من الليل، وما يقدر رسول الله ولا أحد من المسلمين أن يزلوا من موضعهم، وما قدر رسول الله على صلاة ظهر ولا عصر ولا مغرب ولا عشاء، فجعل أصحابه يقولون: يا رسول الله ما صلينا، فيقول: ولا أنا والله ما صليت، شغلنا المشركون عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله أجوافهم وقيورهم ناراً "

(1) انظر في ظلال القرآن لسيد قطب (2837/5)، (2) انظر المرجع نفسه (2837/5)

(2) انظر المرجع نفسه نفس الصفحة وانظر صحيح البخاري (110/5) رقم (4111)،

وصحيح مسلم (437/1) رقم (627)

المبحث الثالث

موقف المؤمنين والمنافقين من المحن والأزمات في غزوة الأحزاب:

موقف المنافقين: وإزاء هذه المحن والأزمات المحصنة تظهر معادن الناس وينكشف المستور وتظهر الحقيقة، وتبدو البلبلة والفرع والجزع من ضعاف النفوس وعديمي الإيمان وأصحاب النفاق، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٣﴾ الأحزاب : وهذا قول المنافقين الذين في قلوبهم شك في الإيمان وضعف في الاعتقاد، يقولون: ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٣﴾ فيستكثرون وعد الله ورسوله بالنصر على كسرى وقيصر، ويتكلمون بأن لا أحد قادر حتى على أن يخرج بوله من الخوف، فكيف يتم تحقيق هذه الوعود⁽¹⁾ وتعذروا بأن بيوتهم عورة من العدو يستأذنون الرجوع، ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣﴾ الأحزاب

والمعنى: فارجعوا إلى منازلكم، وهو أمره بالهرب من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم والفرار منه، وتركه ويستأذن بعضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإذن بالانصراف عنه إلى منزله وإنها خالية ضائعة مما يلي العدو، وإننا نخاف عليها السراق، فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون ذلك، وإنما يريدون الفرار والهرب من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم. ⁽²⁾

فالآيات تكشف هذا النموذج المتكرر في كل الأجيال والجماعات على مدار الزمان، نموذج التشكيك والتثبيط والخذلان.

(1) انظر جامع البيان للطبري (222/20) بتصرف، وانظر الجامع للقرطبي (147/14)

(2) انظر جامع البيان للطبري (224-226/20) وانظر الكشاف للزمخشري (528/3)

"إذن هو تحريض على ترك الصفوف، والعودة إلى البيوت بحجة أن إقامتهم أمام الخندق مرابطين لا موضع لها، وبيوتهم معرضة للخطر من ورائهم، وهي دعوة خبيثة تأتي النفوس من الثغرة الضعيفة فيها، ثغرة الخوف على النساء والذاري.. والخطر محقق، يستأذنون بحجة أن بيوتهم مكشوفة للعدو متروكة بلا حماية.. ويكشف القرآن عن الحقيقة ويجردهم من العذر والحجة ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾، ويضبطهم متلبسين بالكذب والاحتتيال والجبن والفرار. ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾". (1)

موقف المؤمنين:

وبالمقابل نجد موقف المسلمين مشرفاً مليئاً بالمجاهدات والتضحيات، ووسط هذه الأزمة والمحنة يكون الأمل والثقة بنصر الله وفرجه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، فقد روى الإمام أحمد عن ربيع بن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن المؤمنين قالوا يوم الخندق: يا رسول الله بلغت القلوب الحناجر، فهل من شيء نقوله؟ قال: نعم قولوا: اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا. فقالوها فضرب الله تعالى وجوه الكفار بالريح فهزمهم. (2)

وهنا تظهر معادن الرجال ويبرز الإيمان في أعلى صورته ثقة بما عند الله تعالى. فيبشر النبي عليه السلام أصحابه بالنصر رغم شدة الأزمة وقوة المحنة، وذلك لما شقت عليهم الصخرة في حفر الخندق فاستجدوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولما ضربها وصدعها، برقت منها برقة أضاعت المدينة، فكبر النبي عليه السلام وكبر

(1) انظر في ظلال القرآن لسيد قطب (2838/5-2839)

(2) انظر المحرر الوجيز لابن عطية (373/4) وانظر مسند أحمد (27/17) رقم (10996)

المسلمون ثلاثاً حتى كسرهما، وبشرهم حينها وهم في قمة المحنة بقصور الحيرة والروم ومدائن كسرى، وأن أمته موعودة بالنصر. ⁽¹⁾

إذن هو الأمل في عمق الأزمات، والتعلق بالرجاء ونصر الله تعالى، ويجب أن تكون هذه حال المؤمن وقت الأزمات والكروب، وهذه الحالة مشابهة لما حدث في الهجرة للمدينة والنبي عليه السلام وصاحبه خائفين في الطريق من ملاحقة قريش لهم وقد أرسلوا الفرسان للبحث عنهم في كل جبل ووادي، ويلحقهم سراقة بن مالك، ولأن الله تكفل بنصر دينه تغوص أقدام فرسه في الرمال ويخر عنها في الأرض آية ومعجزة لنبيه، ويسأل النبي صلى الله عليه وسلم النجاة ويعطيه الأمان، ويشترط النبي عليه السلام أن يرجع ولا يرشد قريشاً إليهم.. ⁽²⁾

إنه الأمل والرجاء في عمق الأزمات ويسبق ذلك الإيمان والعمل والتخطيط ووحدة الكلمة والدعاء؛ الدعاء الذي ينازع القدر ويرده كما في حديث الترمذي عن سلمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يرد القضاء إلا الدعاء ⁽³⁾، وعن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الدعاء هو العبادة " وقرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ⁽⁴⁾ غافر.

(1) انظر جامع البيان للطبري (224/20) وانظر سيرة ابن هشام (219/2)، وانظر دلائل النبوة للأصبهاني (499/1)، والبيهقي (417/3)، وانظر سنن النسائي (43/6) عن أبي بكر الصديق، وحسنه الألباني

(2) انظر سيرة ابن هشام (490/1) وقصة لحاق سراقة واردة في صحيح البخاري (60/5) رقم (3906)

ومسلم (2309/4) رقم (2009)، أما قصة السوار فهي ضعيفة.

(3) سنن الترمذي (448/4) رقم (2139) حسنه الألباني

(4) المصدر نفسه (211/5) رقم (2969) صححه الألباني

وقد دعا النبي عليه السلام على المشركين يوم الأحزاب فقال : اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب اللهم اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم" (1)

ودعا يوم بدر، يوم المعركة الفاصلة بين الحق والباطل، لما خرج المشركون لحماية قافلتهن الرجعة من الشام وعلى رأسها أبو سفيان عندما علموا بخروج المسلمين والتصدي لها تعويضاً عما تركوه بمكة، ورغم أن القافلة نجت، إلا أن المشركين وعلى رأسهم أبو جهل أصروا على قتال المسلمين، وكانت المفاجأة للمسلمين، حيث لم يتوقعوا المعركة، ولم يكونوا مستعدين لها، وكان عدد المشركين ثلاثة أضعاف المسلمين، ولنا أن نتوقع الأزمة التي عاشها المسلمون، والمحنة التي كانوا فيها، وهم يواجهون هذا العدد من المشركين مدججين بالسلاح، وأخبرهم النبي عليه السلام بحقيقة الأمر، وثبتهم وحرصهم على القتال، وبين لهم أجر الشهادة في سبيل الله.

وأنزل الله عليهم من رحماته وبركاته وغشيمهم النعاس رغم همّ المواجهة، وأنزل لهم مطراً ليظهرهم به ويذهب عنهم رجز الشيطان ويربط على قلوبهم ويثبت به الأقدام قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمْ النُّعَاسَ أَمْنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال]

نام الجيش كله على غير العادة فارتاحوا من تعب السفر، واطمأنت نفوسهم، وقويت أجسامهم للقاء الموعود، إلا حامل لواء الدعوة وهم الأمة، نبينا عليه الصلاة والسلام، بالرغم من ثقته في النصر، ومعرفته بالوحي أنهم منصورون، فقد كان يصلي تحت شجرة ويدعو حتى أصبح، ويلح في الدعاء، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، وجاء أبوبكر ورداه إليه، وقال له: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك.

(1) صحيح البخاري (44/4) رقم (2933) ومسلم رقم (1742)

فقد روى مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: (اللهم أنجز لي ما وعدتني. اللهم ائتني ما وعدتني. اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض. فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه. فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴿١﴾﴾ الأنفال⁽¹⁾، فأمده الله بالملائكة، والمعنى: أي تستجيرون به من عدوكم، وتدعونه للنصر عليهم، فأجاب دعاءكم، بأن يمدكم بألف من الملائكة يُرَدِّف بعضهم بعضاً، ويتلو بعضهم بعضاً.

إنها المعركة كلها تدار بأمر الله ومشيئته، وتديره وقدره وتسير بجند الله وتوجيهه.. وهي شاخصة بحركاتها وخطراتها من خلال العبارة القرآنية المصورة المتحركة المحيية للمشهد الذي كان، كأنه يكون الآن بيننا: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ الأنفال، وأجاب الله دعاء نبيه وأنزل الملائكة لتقاتل مع المسلمين ويتحقق نصر الله ووعده، وذلك بعد الأخذ بالأسباب، فقد عرف النبي عليه السلام عددهم من ذبائحهم، ودفن الآبار حتى لا يشربوا، وحرص المؤمنين على القتال، وبشرهم بالنصر والشهادة. " (2) وكان نصر الله تعالى كما قال ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ محمد، وقتل سبعون من المشركين وأسر

(1) صحيح مسلم (1383/3) رقم (1763)

(2) انظر جامع البيان للطبري (13/398-400) و(13/409)، وانظر في ظلال القرآن لسيد قطب (3/1483)، وانظر سيرة ابن هشام (1/606-650)

سبعون، قتل منهم صناديدهم وزعمائهم: أبو جهل، وأمّية بن خلف، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، وزمعة بن الأسود، وأبو البخترى بن هشام، وغيرهم. نعود لمشهد الأحزاب وقد عرجنا سريعاً على أزمة المسلمين يومها في بدر، وما كان فيها من مباغطة، ثم كان النصر والفرج وإحقاق الحق وإبطال الباطل بعد العمل بالأسباب والدعاء من النبي عليه السلام.. نعود لنستجلي موقف المؤمنين يوم الأحزاب، موقف الصبر والعزيمة والإيمان، وهو مقابل موقف المنافقين السابق، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ٢٢٣﴾ الأحزاب، إذن هو تسليم لأمر الله، وقد جعل الله البلاء سبباً لدخول جنته، ونيل رضوانه، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ٢١٤﴾ البقرة، وهذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وما زادهم اجتماع الأحزاب عليهم إلا إيماناً بالله وتسليماً لقضائه وأمره، ورزقهم به الظفر والنصر على الأعداء. (1)

في هذه الظروف ووقت المحن والأزمات يظهر الصدق والوفاء بالعهد حتى لو أدى لإزهاق الروح، فهي رخيصة في سبيل الله، ولذلك مدحهم القرآن فقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ٢٢٣﴾

(1) انظر جامع البيان للطبري (236/20)، وانظر الجامع للقرطبي (157/14)، وانظر تفسير

القرآن لابن كثير (350/6)

فالصدق يتمثل في الوفاء بالعهد، بعكس المنافقين الذين نقضوا العهد الذي عاهدوا الله عليه لا يولوا الأدبار. والعهد؛ وهو الصبر على البأساء والضراء، فمنهم من فرغ من نذره وصبر على الجهاد حتى استشهد يوم بدر وبعضهم في أحد وغيرها، ومنهم من ينتظر قضاءه وأجله، وما بدلوا عهدهم، بل أوفوا وصدقوا. (1)

وتأتي صورة المؤمن الواصل المطمئن.. الصورة المشرقة المضيئة في مواجهة الخطر الذي يزلزل القلوب، فيتخذ من هذا الزلزال مادة للطمأنينة والثقة والاستشهاد.. ويربط صاحب الظلال ذلك الماضي البعيد بأزماته وابتلاءاته بحاضرنا اليوم المليء بالمؤامرات والمحن فيقول: " علينا أن ندرك أن ذلك النموذج الفريد كانوا بشراً بما فيهم من قوة وضعف.. ومنشأ امتيازهم الاحتفاظ بخصائص البشر في الأرض مع الاستمساك بعروة السماء.. وحين نرى ضعفنا مرة أو فرعنا مرة، أو ضقنا مرة بالهول والخطر والشدة والضيق، فعلينا ألا نياس من أنفسنا، وألا نهلع ونحسب أننا هلكنا، أو أننا لم نعد نصلح لشيء عظيم أبدا.. ولكن علينا في الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا ونُصرَّ عليه، هناك العروة الوثقى، عروة السماء.. وعلينا أن نستمسك بها لننهض من الكبوة، ونسترد الثقة والطمأنينة، ونتخذ من الزلزال بشيراً بالنصر، فنثبت ونستقر ونقوى ونطمئن ونسير في الطريق.. " (2)

وقد بدأت المعركة وسارت في طريقها، وانتهت إلى نهاياتها وزمامها بيد الله يصرفها كيف يشاء بكل ما فيها من أحداث وعواقب، وأثبت النص القرآني هذه الحقيقة بطريقة تعبيره فقال تعالى: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى

(1) انظر جامع البيان للطبري (20/237)، وانظر معالم التنزيل للبغوي (3/624)، وانظر

تفسير القرآن لابن كثير (6/352)

(2) انظر الظلال لسيد قطب (5/2844-2845)

اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ^{٢٥} وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٥﴾ الأحزاب. ردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحنقهم ولم ينالوا خيراً لا في الدنيا من ظفر ومغرم، ولا في الآخرة بما كان منهم من عداوة وحرب النبي صلى الله عليه وسلم، واستئصال جيشه وجماعته.

﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ : فلم يحتاجوا إلى منازلهم، بل كفى الله وحده، ونصر عبده، وأعز جنده. (1) ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ : إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش.. ولم يغزهم المشركون، بل غزاهم المسلمون في بلادهم، كما ورد في البخاري (الآن نغزوهم ولا يغزونا) (2)

وتأكيداً لنصر الله تعالى عباده المؤمنين، وعصمته من قتال المشركين لهم، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ ﴿٣٦﴾ الأحزاب: والمعنى : عاونوا الأحزاب على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني بني قريظة من اليهود، فأنزلهم من حصونهم، وقذف في قلوبهم الخوف، لأنهم أخافوا المسلمين، بمعاونتهم للمشركين، فانعكس الحال عليهم، وأرادوا استئصال المسلمين فاستئصلوا.. وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة، فكانت الصفقة الخاسرة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وقال: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ ﴿٢٧﴾ الأحزاب (3) إن دارت الدائرة عليهم، ولم تدر على المشركين وغطفان وحدهم، بل دارت كذلك على بني قريظة حلفاء المشركين من اليهود.

(1) انظر تفسير القرآن لابن كثير (354/6-355)، وانظر دلائل النبوة للبيهقي (357/3)

(2) صحيح البخاري (110/5) رقم (4110)

(3) انظر تفسير القرآن لابن كثير (355/6-359)

"ومنذ ذلك اليوم بدأت الحرب التي لم تضع أوزارها حتى اليوم بين الإسلام واليهود، بدأت حرب دعاية ضد النبي عليه السلام والإسلام، ثم اتخذوا خطة التشكيك في الرسالة، وإلقاء الشبهات حول العقيدة الجديدة، واتخذوا طريقة الدس والفتنة بين المسلمين، وطريقة التجسس لحساب أعدائهم من المشركين، واتخذوا بطانة من المنافقين لإيقاع الفتنة في صفوف المسلمين.. وأخيراً أسفروا عن وجوههم واتخذوا طريق التآليب على المسلمين كالذي حدث في الأحزاب." (1)

واستغلال اليهود للأحداث والشعوب والدول حتى اليوم ماثلاً للعيان، وتسخير كل ذلك للحرب على الإسلام والمسلمين، وفرقوا بين المسلمين بحجة الشيعة والموالاة لبيت النبوة والحب لآل البيت وهم عنهم براء، حتى كان الغلو من الشيعة، وجعلوا من لا يؤمن بالولاية ليس بمسلم وحلال الدم، وحرفوا القرآن، وكفروا الصحابة رضوان الله عليهم، حتى خالفوا الإسلام الحقيقي الذي جاء به نبي الرحمة عليه السلام، فقرآنهم غير قرآننا، وصلاتهم غير صلاتنا، بل بعضهم جعل الأئمة فوق الأنبياء في الدرجة، وهم الذين يقضون بين الخلائق يوم القيامة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. (2)

فاليهود هم رأس البلية، حقداً وحسداً من عند أنفسهم، لأن النبي الخاتم لم يكن منهم، فزرعوا الفتن بين المسلمين، ودعم اليهود في عصرنا الحاضر للشيعة لا يخفى على أحد، فهم الذين زرعو التشيع في الأمة بقصد الفرقة والشتات، وما يدور من فتن اليوم في سوريا والعراق ولبنان واليمن وغيرها، ليس ببعيد عنهم وعن كيدهم، فالتحالف الاستراتيجي بين الغرب واليهود والشيعة لأن العدو واحد، فعاثوا في الأرض فساداً، وسفكوا الدماء وقتلوا وارتكبوا المجازر في هذه الدول، وأظهروا من

(1) انظر الظلال لسيد قطب (2846/5)

(2) انظر عن عقيدة الشيعة : الملل والنحل للشهرستاني (93/1) وانظر فضائح الباطنية لابن

حزم (36/1)

حقدهم على الإسلام والمسلمين، ولكن هم يمكرون ويدبرون وسوف يحبط الله
مكرهم ويغلبون كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ الأنفال وقال: ﴿ وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ ﴿٣٠﴾
فلنثق في نصر الله لنا، ولنوحد الصفوف، ونسد الثغرات، ولنعد العدة ما استطعنا
إلى ذلك سبيلا، ولنعمل بالأسباب وفوق ذلك نتحلى بالإيمان والاعتصام بالكتاب
والسنة، ولنبتعد عما كسبت أيدينا من الآثام والخطايا، والمظالم والمعاصي، كل
ذلك مع الإكثار من الدعاء الذي لم يتركه النبي عليه الصلاة والسلام. وفي ذلك
المخرج من الأزمات، والنصر على الأعداء والمتريصين، والتمكين لهذا الدين الذي
تكفل الله به فقال في سورة غافر: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾، وقال: ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ
لَهُمْ وَيُغْلِبَنَّ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ النور

الخاتمة:

وبعد هذا الطواف السريع، ومحاولة الكشف عن الأزمة والمحنة التي عاشها المسلمون الأوائل في غزوة الأحزاب، وكيف تعاملوا معها لَمَّا أحاطت بهم جنود الأحزاب من كل ناحية لاستئصالهم، والخلاص منهم ومن هذا الدين، وكيف أن الله نصرهم وأعزهم، فرجع جنود الأحزاب خائبين خاسرين نخلص إلى بعض النتائج المهمة، لتكون نبراساً ومنازة للمسلمين في عصرنا الحاضر، ليواجهوا الأزمات التي تعيشها الأمة، وليعبروا المكائد والاستهداف من أعداء الإسلام من الغرب واليهود وأذناهم من الروافض وغيرهم، وليسيروا في الطريق غير مبالين بالعقبات، ولا ملتفتين للوراء، ومن هذه النتائج :

1/ الإيمان والاعتصام بالكتاب والسنة أساس النصر والفوز والصلاح، والافتداء بالرعيل الأول من المؤمنين : ﴿ يَتَأَيَّمُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهُ يُصْرِكُمْ وَيُنَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ محمد ﷺ

2/ الابتعاد عما كسبت أيدينا من المظالم والآثام ﴿ وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ الشورى

3/ الاستعداد وإعداد العدة وإكمال التجهيزات بقدر الاستطاعة، والتمسك بالجهاد والتضحية في سبيل الله بالغالي والنفيس قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ ءَ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ الأنفال

4/ الأخذ بالأسباب وعدم التواكل، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بغمر الآبار في بدر واجتهد في معرفة عدد العدو وعدتهم، وأرسل العيون لجمع المعلومات، وحرص المؤمنين على القتال، وبشرهم بالنصر والشهادة. وفي غزوة الأحزاب وافق على فكرة حفر الخندق حول المدينة حماية لها وللمسلمين وأموالهم، وأمر بالمرابطة على الخندق والتناوب عليه.

5/ التفاؤل ورفع المعنويات في أحلك الظروف وأصعب الأوقات، فقد بشرهم النبي الكريم في بدر بالنصر ووعدهم القرآن بإحدى الطائفتين: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ۖ﴾ الأنفال، وفي الخندق بشرهم بفتح الشام وفارس والروم.

6/ تواضع القادة، ومشاركة الجنود وعامة الناس مواقعهم وخنادقهم، وتوجيههم معنوياً، مما يحفز الجنود، ويكون سبباً في النصر.

7/ وحدة المسلمين وجمع الصف، والبعد عن الخلافات وأسباب الفرقة، والوقوف صفاً واحداً أمام العدو المتجمع لحرب المسلمين: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۗ﴾

﴿الحشر﴾ ١٤

8/ الثقة بنصر الله لا يخالطها شك، والإيمان بتمكين الله لدينه، ونصر أوليائه:

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝٥١﴾ غافر

9/ تبين محاولة الأعداء الدائمة لطمس الإسلام وأهله، وأن الحرب والمكائد والمؤامرات مستمرة من أعداء الدين في كل زمان ومكان، حتى يومنا هذا وإلى قيام الساعة، ولكن هيهات أن يصلوا إلى مرادهم، والله متم نوره ولو كره الكافرون:

﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ۝٣٠﴾ الأنفال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝٣٦﴾ الأنفال.

المصادر والمراجع:

1/ القرآن الكريم.

2/ تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم : أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: 327هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة 1419 هـ.

3/ تفسير القرآن العظيم لابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولى 1419 هـ.

4/ تهذيب اللغة للأزهري، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى 2001 م.

5/ جامع البيان في تأويل القرآن للطبري : محمد بن جرير بن يزيد بن كثير أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى 1420 هـ - 2000 م.

6/ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى : 671هـ)، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة : الثانية 138 هـ - 1964 م.

7/ جمهرة اللغة للأزدي: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: 321هـ) تحقيق: رمزي منير بعلبكي: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الأولى 1987 م.

8/ دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: 430هـ)، حققه: الدكتور محمد رواس، عبد البر عباس: دار النفائس، بيروت، الطبعة: الثانية 1406 هـ - 1986 م.

- 9/ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة للبيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ): دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - 1405 هـ.
- 10/ سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سؤرة بن موسى بن الضحاك الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: 279هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة: الثانية، 1395 هـ - 1975 م.
- 11/ السنن الصغرى للنسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي (المتوفى: 303هـ) تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب الطبعة: الثانية، 1406 - 1986.
- 12/ السيرة النبوية لابن هشام: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: 213هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، 1375 هـ - 1955 م.
- 13/ السيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البستي (المتوفى: 354هـ)، صححه وعلق عليه الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء، الناشر: الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1417 هـ.
- 14/ صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422 هـ.
- 15/ صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- 16/ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: 393هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار: دار العلم للملايين - بيروت الطبعة: الرابعة 1407 هـ - 1987 م.

- (17) فضائح الباطنية للغزالي : أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: 505هـ) المحقق: عبد الرحمن بدوي: مؤسسة دار الكتب الثقافية - الكويت
- 18/ في ظلال القرآن لسيد قطب: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: 1385هـ)، دار الشروق - بيروت - القاهرة، الطبعة: السابعة عشر - 1412 هـ.
- 19/ القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً، المؤلف: الدكتور سعدي أبو حبيب: دار الفكر. دمشق - سورية، الطبعة: الثانية 1408 هـ = 1988 م.
- 20/ كتاب العين للخليل: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: 170هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي: دار ومكتبة الهلال.
- 21/ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري : أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ): دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1407 هـ.
- 22/ لسان العرب لابن منظور: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي (المتوفى: 711هـ): دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ.
- 23/ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية : أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - 1422 هـ.
- 24/ المحكم والمحيط الأعظم، المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [المتوفى: 458هـ]، المحقق: عبد الحميد هندراوي: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2000 م.
- 25/ مختار الصحاح للرازي : زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: 666هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، الطبعة: الخامسة، 1420 هـ / 1999 م.

- 26/ مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م.
- 27/ معالم التنزيل في تفسير القرآن للبخاري: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البخاري الشافعي (المتوفى: 510هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ.
- 28/ المعجم الوسيط، المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة.
- 29/ المغازي للواقدي: محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، الواقدي (المتوفى: 207هـ)، تحقيق: مارسدن جونس: دار الأعلمي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1989/1409.
- 30/ معجم مقاييس اللغة لابن فارس: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون: دار الفكر: 1399 هـ - 1979 م.
- 31/ الملل والنحل للشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (المتوفى: 548هـ)، الناشر: مؤسسة الحلبي
- 32/ النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: 606هـ) تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي: المكتبة العلمية - بيروت، 1399 هـ - 1979 م.